

قبل بلوغ القافية ثم تأتى كلمة القافية من غير أن يكون لها فيما ذكره صنع بل يأتى لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره فى البيت فإنهم يسمون هذا « الإيغال » ^(١) ، كما قال امرؤ القيس :

كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحَلْنَا الْجَزْعَ الَّذِى لَمْ يُثَقِّبْ ^(٢)

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع ، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف وأكدده وهو قوله : « الذى لم يثقب » فإن عيون الوحش غير مثقبة ، وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه ^(٣) .

وقد اهتم نقاد الشعر القدماء بهذه الظاهرة واستحسنوها ، وعابوا على الشاعر أن يأتى بالقافية لتكون نظيرة لأخواتها وحسب ، لا لأن لها فائدة فى معنى البيت ، أو يتكلفها الشاعر تكلفاً فيشتغل معنى سائر البيت بها ، وأوجبوا أن تكون نابعة فى استرسال ، وجارية عفواً فى تلقائية دون تكلف . ولكنهم أغفلوا دورها فى تركيب الجملة وبنائها وما تقوم به فى هذا المجال وما يؤديه الشعر من دور فى الاختيار اعتماداً على أن التركيب النحوى لابد أن يكون مستوفى قبل كل شئ ، وإن كانت هناك بعض الظواهر التى لها بالنحو تعلق ، غير أنها لا ترد إلا فى مجال العيوب ^(٤) .

وهناك ثلاثة محاور يمكن تناول القافية من خلالها وتلمس دورها فى الجملة فى الشعر القديم الذى أؤثر أن أسميه شعر البيت ، وهى :

(١) نقد الشعر : ١٦٩ ، والعمدة : ٥٧/٢ .

(٢) الجزع : خرز فيه سواد وبياض .

(٣) انظر : نماذج أخرى فى نقد الشعر : ١٦٩ وما بعدها ، والعمدة : ٥٧/٢ - ٦٠ والبديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ : ٨٩ - ٩١ . وكتاب الصنائع لأبى هلال العسكري : ٣٩٥ .

(٤) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٩٥/١ وما بعدها ، والموشح للمرزبانى : ٤ وما بعدها .